من جماليات الإطناب
في القرآن الكريم

د. سهام مادن
(كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر)

مقدّمة:

أنزل القرآن الكريم بلسان عربيّ مبين ليكون حجّة للمصطفى الكريم، ومعجزة خالدة تحيا بيننا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالى: **(قرآنا عربيا غير ذي عوج)** (سورة الزمر الآية 28)، وقال تعالى: **(بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)** (سورة البروج الآيتان 21،22)، وقال تعالى: **(إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون)** (سورة الحجر الآية 9)، فقد تفرّد القرآن الكريم بهذه المعجزة الخالدة بالمقارنة مع الرسائل السماوية الأخرى، إذ نجده مميزا في لغته وأسلوبه وبلاغته ومنها الإطناب الذي وإن كان في كلام العرب مذموما ومحمودا فهو في القرآن الكريم معجز.

إذن سنحاول التطرق إلى بعض جماليات الإطناب في القرآن الكريم وذلك بتحديد العناصر التالية:

- مفهوم الإطناب لغة.
- مفهوم الإطناب اصطلاحا.
- طرق الإطناب وأسباب وروده في لقرآن الكريم.

مفهوم الإطناب لغة:

عرّفه ابن فارس في قوله: "الطاء والنون والباء أصل يدلّ على ثبات الشيء وتمكنه في استطالة (...) ومن الباب قولهم أطنب في الشيء إذا بالغ كأنّه ثبت عليه إرادة المبالغة فيه"1، وأضاف الزّمخشري قائلا: "فرس أطنب طويل الظهر وفيه طنب وهو عيب (...) ولي حاجات أطانيب طويلة كثيرة لا تكاد تنقضي (...)، ونهر طنب بعيد الذهاب"2، حيث يقوم كلام الزمخشري على فكرتين أساسيتين هما الطول والكثرة، وفصل ابن منظور في تعريف هذه الكلمة في

قوله:" والأطناب الطوال من حبال الأخبية (. . .)، والأطناب ما يشد به البيت من الحبال بين الأرض والطرائف (. . .)، والطنب طول في الرجلين في استرخاء (. . .)، والإطناب: البلاغة في المنطق والوصف مدحا كان أو ذمّا، وأطنب في الكلام بالغ فيه، والإطناب المبالغة في مدح أو ذمّ والإكثار فيه. . ."3، أضاف ابن منظور معنى جديدا وهو اعتبار الإطناب بلاغة، وخلاصة القول أنّ مادة (طنب) تجتمع في معنى الطول في ثبات، والشّدة مع الإكثار.

مفهوم الإطناب اصطلاحا:

تعدّدت التعاريف، فهذا ابن الأثير يقول في تعريفه: "زيادة اللفظ عن المعنى لفائدة"4، وعرّفه اللغوي يحيى العلوي: "زيادة اللفظ عن المعنى لفائدة جديدة من غير ترديد"5، وعرّفه ابن سنان الخفاجي: "طول الكلام في فائدة وبيان وإخراج للمعنى في معاريض مختلفة"6، وعرّفه أبو هلال العسكري قائلا: "المنطق هو بيان والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفا لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني"7.

وإذا تتبعنا كلام أبي هلال العسكري نجده يرتكز على عدة نقاط، أوّلها أنّ البيان لا يكون إلا بالإشباع وقد استخدم أسلوب الحصر، حيث حصر كينونة البيان في الإشباع الذي هو عبارة عن الإطناب، وثانيها أسلوب حصر أيضا، حيث حصر الشّفا والمراد منه إرضاء المتلقي في الإقناع الذي عدّته الإشباع، وثالثهما أنّ الأفضلية في حيّز الكلام جعلت لأبينه، وأبينه ما كان كامل الإحاطة بالمعاني ولا يكون هذا إلا بالإطناب.

طرق الإطناب وأسرار وروده في القرآن الكريم:

لقد ذكر علماء البلاغة عدّة تفريعات فيما يتعلق بطرق الإطناب وصور وروده في الكلام، فمنهم من يرى أنّه يكون في الجملة الواحدة أو في عدّة جمل، ولهذا التقسيم فروع ذكرها كل من يحيى العلوي وابن الأثير8.

يقع الإطناب في الجملة الواحدة:

وهو ضربان، إطناب يقع على جهة الحقيقة وآخر على جهة المجاز، ومثال الأول قوله تعالى: **(وتقولون بأفواهكم . . .)** (سورة النور: الآية 15) ، وقوله تعالى:

(ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) (سورة الأحزاب: الآية4)، فالقلب لا يقع إلا في الجوف وكذلك القول لا يكون إلا بالفم فهذا حقيقة، أما الإطناب على جهة المجاز فمثاله قوله تعالى: **(فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)** (سورة الحج: الآية 46)، فالعمى في الحقيقة يصيب البصر، أما إصابته للقلب فهي من باب المجاز فهو استعارة للصفة.

يقع الإطناب في الجمل المتعدّدة:

وهو ضربان:

النفي والإثبات كقوله تعالى: **(وعد الله لا يخلف الله وعده ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)** (سورة الروم: الآيات 5،6،7).

أن يصدّر الكلام بذكر المعنى تامّا ثمّ يردف بذكر التشبيه على جهة الإيضاح والبيان، ومثاله قوله تعالى: **(الله نور السّماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزّجاجة كأنها كوكب ذرّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقيّة ولا غربيّة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم)** (سورة النور: الآية 35).

يقع الإطناب في القرآن الكريم بأنواعه الثلاثة:

إطناب بسيط.

إطناب زيادة.

إطناب تكرار.

ولقد بيّنت الدّراسات المختلفة وجوده في القرآن الكريم لأغراض بلاغية كثيرة سنوجزها فيما يلي:

الإطناب بالبسيط: عرّفه التونجي قائلا:" الإطناب الذي يكون بتكثير الجمل"9.

ويرد في عدّة صور هي:

الاستقصاء:

وحدّه " أن يذكر المتكلّم معنى ثمّ يستقصيه إلى أن لا يترك فيه شيئا "10، وقد ورد في مواضع مختلفة من القرآن الكريم ولعدّة أغراض وأسرار من أهمّها:

الدعاء: كقوله تعالى على لسان نبيه زكريا عليه السلام: **(قال ربّي إنّي وهن العظم منّي واشتعل الرّأس شيبا . . .)** (سورة مريم: الآية 4)، علق لاشين عبد الفتاح قائلا: "إذ كان يكفي القول ربّي إني شخت، أو ربي إني كبرت" . فزادت الألفاظ عن المعنى لفائدة وهي إظهار الضعف وتأكيده، لأنّ كبرت إنما تدل على تقدّم السنّ فقط وقد يكون مع تقدّم سنّه قويّا، وهو يريد أن ينصّ على أنه ضعيف الجسم زيادة على كبر سنّه وليس أدل على غرضه هذا من ضعف العظم وانتشار الشيب"11.

التذكير والتحذير: تمثله أغلب آيات الذّكر الحكيم المسوقة لبيان أهوال يوم القيامة، وهي كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: **(كل نفس بما كسبت رهينة، إلا أصحاب اليمين، في جنّات يتساءلون عن المجرمين، ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنّا نكذب بيوم الدّين حتّى أتانا اليقين، فما تنفعهم شفاعة الشافعين)** (سورة المدّثر : الآيات 38-48) .

تكثير الأمثلة للإيضاح والعبرة: كثيرة هي النماذج التي سبقت لبيان مختلف القضايا في القرآن الكريم وعلى رأسها قضية الإيمان والكفر، كقوله تعالى: **(مثلهم كمثل الذي استوقد نارا . . .)** (سورة البقرة: الآية 17)، وقوله تعالى: **(أو كصيّب من السماء . . .)** (سورة البقرة: الآية 19)، وقوله تعالى: **(إنّ الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور)** (سورة فاطر: الآية 22)، حيث شبه حال الإنسان بالأعمى والبصير، والظلمة والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات، لفائدة جليلة وغاية شريفة تتمثل في توضيح حال المؤمن والكافر، من مختلف المنطلقات بغية الاعتبار والاتعاظ12.

الإيضاح بعد الإبهام: المراد منه إعطاء المعنى في صورتين مختلفتين: إحداهما مجملة مبهمة والأخرى مفصّلة موضحة13 ويسميه السيوطي البدل إذ يقول: "البدل والقصد به الإيضاح بعد الإبهام"14.

وللإيضاح بعد الإبهام أسرار وأغراض ذكرها علماء البلاغة كالتفخيم والتعظيم والبيان والتأكيد والإقناع والتشويق وغيرها15، ومن أمثلتها في القرآن الكريم نذكر قوله تعالى: **(وما أدراك ما يوم الدّين ثمّ ما أدراك ما يوم الدّين، يوم لا تملك نفس**

لنفس شيئًا والأمر يومئذٍ لله) (سورة الانفطار: الآيات 17–19)، هذا التكرار غرضه التفخيم، قال الألوسي: "التفخيم لشأن يوم الدّين الذي يكذبون به (. . .) وقوله سبحانه: **(يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذٍ لله)** (سورة الانفطار: الآية 19) بيان إجمالي لشأن يوم الدّين إثر إبهامه"16.

وقال تعالى: **(وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحًا لعلي أبلغ الأسباب، أسباب السّماوات فأطلع إلى إلهِ موسى وإني لأظنّه كاذبا . . .)** (سورة غافر: الآية 36 و 37)، قال الألوسي: "وفي إبهامها ثمّ إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها"17، وقد ساق ابن الأثير غرضا آخر من وراء الإبهام هو التعجب18، وإلى مثل ذلك ذهب أبو حيّان في قوله: "إذ هي الإبهام تشوق للمراد وتعجب من المقصود، ثمّ بالتوضيح يحصل المقتصد ويتعيّن"19.

الإجمال بعد التفصيل والعكس:

عرّف الشريف الجرجاني الإجمال قائلا: "إيراد الكلام على وجه يحتمل أمورا متعددة"20، وللإجمال بعد التفصيل والعكس أغراض عديدة كرفع توهّم المجاز، الإنكار والترهيب، كقوله تعالى: **(ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين. . .)** (سورة الأنعام: الآية 143)، حيث أورد الأنعام بلفظ ثمانية المجمل ثم فصّل الثمانية زوجا للرد عليهم، قال رشيد رضا: "بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم، فإنهم كانوا يحرّمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كله لله سبحانه"21.

ذكر الخاص بعد العامّ والعكس:

عرّفه الشريف الجرجاني قائلا: "لفظ وضع وضعا واحدا لكثير غير محضور مستغرق بجميع ما يصلح"22، كقوله تعالى: **(حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى. . .)** (سورة البقرة: الآية 238)، فلفظ الصّلوات عام يحمل الدّلالة المشتركة حول معنى الصلاة ، وقوله تعالى :(الصلاة الوسطى) خاص يمثل جزءا من تلك الصلوات التي أمرنا بالمحافظة عليها .

ولهذا الأسلوب أسرار تحدّث عنها علماء البلاغة والمفسّرون منها العناية بشأن المخصوص، والتنبيه على فضل الخاص وبيان قيمة الخاص، وغيرها23.

الإطناب بالزيادة:

و يرتبط كثيراً بالتوكيد، لأنّ في القرآن الكريم كلّ زيادة تدلّ على معنى، فهو كلام الله عزّ وجل.

ومن بين الأسرار البلاغية التي يرتبط بها الإطناب بالزيادة التّوكيد، وهو كما عرّفه يحي العلوي: "التأكيد تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته، إزالة الشكوك وإماطة الشبهات عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ كثير الفوائد"24.

والتوكيد يكون بوسائل مختلفة قال الإمام السّيوطي: "إنّ وأنّ، ولام الابتداء والقسم، وألا الاستفتاحية، وأما وها التنبيه وكأنّ في تأكيد التشبيه،ولكنّ في تأكيد الاستدراك، وليت في تأكيد التمني، ولعل في تأكيد الترجي، وضمير الشأن وضمير الفصل، وأمّا في تأكيد الشرط، والسين وسوف، والنونان في تأكيد الفعلية، ولا التبرئة، ولن ولما في تأكيد النفي"25. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **(إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون)** (سورة الحجر،الآية9).

ورد التأكيد في هذه الآية الكريمة بأكثر من أداة (إنّ)، (نحن)، (لام التأكيد) في (لحافظون) و(تقديم الجار والمجرور له) على الخبر (لحافظون)، وفوق ذلك إسناد المؤكدات إلى صيغة الجمع وهو الله تعالى والأمثلة كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: **(فسجد الملائكة كلهم أجمعون)** (سورة الحجر،الآية 30).

لفظة الملائكة مؤكدة بتوكيدين معنويين أفادا كما قال السيّوطي: "رفع توهم المجاوز وعدم الشمول"26، وقوله تعالى: **(وكلّم الله موسى تكليما)** (سورة النساء،الآية 164).

توكيد الفعل بمصدره(تكليما) وهو نوع من أنواع التّوكيد. يؤتي بالإطناب بالزيادة لأسرار بلاغية كثيرة منها التوكيد والاحتراس والتذييل والتتميم والاعتراض، فهي أسرار بلاغية كثيرة يطول شرحها في هذا المقام.

الإطناب بالتكرار:

عرّفه الشريف الجرجاني قائلا: "عبارة عن الإتيان بشيء مرة بعد أخرى"27.

وعرّفه ابن قيم الجوزية قائلا: "فحقيقة التّكرار أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أو مختلفا، أو يأتي بمعنى ثم يعيده وهذا من شرط اتفاق المعنى الأول والثاني فإن كان متحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في

إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النفس وكذلك إذا كان المعنى متحدا، وإن كان اللفظان متفقان والمعنى مختلف فالفائدة من الإتيان به الدلالة على المعنيين المختلفين"28. والتكرار في القرآن الكريم يكون بأوجه مختلفة، تكرار الصوت، وتكرار الكلمة، وتكرار الآية أو الجملة، وتكرار القصص، ولهذا التكرار على اختلاف أنواعه أسرار بلاغية كثيرة نذكر منها التأكيد والتقرير في قوله تعالى: **(فبأيّ ألاء ربّكما تكذبان)** (من سورة الرحمن). قال الإمام الشوكاني: "تقريرا للنّعمة، وتأكيدا للتذكير بها على عادة العرب في الاتساع"29، والتعظيم والتعويل في قوله تعالى: **(الحاقة ما الحاقة)** (سورة الحاقة: الآيتان 1و2)، قال الإمام الرازي (الحاقة) مرفوعة بالابتداء وخبرها (ما الحاقة)، والأصل: "الحاقة ما هي أي شيء هي؟ تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها فوضع الظاهر موضع المضمر لأنّه أهول لها"30.

والمبالغة والتعجب كقوله تعالى: **(فقتل كيف قدّر، ثمّ قتل كيف قدّر)** (سورة المدثر: الآيتان 19 و20)، قال القاسمي: "إذا تكرر قوله (قتل كيف قدّر) مرتين مع الفصل بين التكرارين بـ(ثمّ) والسّر من وراء هذا التكرار المبالغة في التعجّب منه، وقد اعتيد فيمن عجب غاية التعجّب أنّه يكثر من التعجّب ويكرره، و(ثمّ) للدلالة أنّ أبلغ في التعجّب من الأولى للعطف بـ (ثمّ) الدالة على تفاوت الرتبة، فكأنه قيل قتل بنوع ما من القتل، لا بل قتل بأشدّه وأشدّه، لذا ساغ العطف فيه مع أنّه تأكيد"31. وهناك أغراض بلاغية أخرى للإطناب، منها التذكير والتنبيه وغيرها كثير.

الخاتمة:

إنّ الحديث عن أسرار الإطناب في القرآن الكريم يطول ويطول، فهو وجه من وجوه الإعجاز القرآني، وهذا المجال عظيم بعظمة صاحبه عزّ وجل، يكمن في الأثر الذي يحدثه الإطناب في قلوب السامعين، ومهما تعدّدت أنواعه ووجوهه، فالقرآن الكريم بإطنابه وبوجوهه البلاغية الأخرى بحر لا حدود له لا يرتوي العطشان منه لحلاوته الدائمة المستمرة فهو دائما يطمع في المزيد.

للإطناب جماليات كثيرة مثّلنا لبعضها آملين أن يتدارك غيرنا ذلك أو أن يتوسّع غيرنا في هذا الموضوع الذي مهما قيل فيه، فإنه موضوع ذو أبعاد كثيرة لتعلقه بلغة القرآن الكريم.

هوامش الدراسة:

1- أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، اعتنى به الدكتور محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، ط1، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت لبنان، 1422هـ-2001م، ص 301.

2- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار الفكر، 1399هـ-1979م، ص 396-397.

3- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1300هـ، مج5، ص 369.

4- ابن الأثير ضياء الدّين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 1416هـ-1995م، ج2، ص120.

5- العلوي يحيى، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، أشرفت على مراجعته وضبطه وتدقيقه مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1402هـ - 1982م، ج2، ص 230.

6- الخفاجي بن سنان، سرّ الفصاحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1402هـ - 1982م، ص 211.

7- العسكري أبو هلال، الصناعتين الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه: الدكتور مفيد قميحة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1409هـ-1989م، ص 207.

8- ارجع لـ: ابن أثير، المثل السائر، ج2، ص 121 إلى 128، و العلوي يحيى، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج2، ص 234 إلى 244.

9- التونجي محمد وراجي الأسمر، المعجم المفصل في علوم اللغة (الألسنيات)، مراجعة الدكتور إميل يعقوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1414هـ-1993م، ج1، ص 73.

10- المرجع نفسه، ج1، ص42.
11- لاشين عبد الفتاح، المعاني في ضوء أساليب القرآن، ط4، دار الفكر العربي، القاهرة، 1419هـ-1999م، ص259.
12- الرّازي فخر الدّين، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1410هـ-1990م، مج 13، ج 26، ص 16.
13- التونجي محمد، المعجم المفصّل، ج1، ص 268.
14- السيوطي جلال الدين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصحّحه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1408هـ- 1988م، مج1، ص268.
15- ارجع لـ: الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحّح أصله محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي، وعلّق عليه محمد رشيد رضا، ط3، دار المعرفة، بيروت لبنان، 1422هـ -2001م، ص117،وابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص24، والقزويني الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1405هـ-1985م، ص196، والمراغي أحمد مصطفى، عوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1420هـ-2000م، ص235.
16- الألوسي شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبه وصححه علي عبد الباري عطيّة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415 هـ- 1994م، مج 15، ج30، ص 271.
17- الألوسي، روح المعاني، مج 12، ج 24، ص 322.
18- ابن الأثير، المثل السائر، ج 2، ص 25.
19- الأندلسي أبو حيان، البحر المحيط في التفسير بعناية صدقي محمد جميل، زهير جعيد وعرفان العشا حسونة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1412هـ 1992م، ج9، ص258.

20- الجرجاني الشريف، التعريفات، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت، 1990م، ص7.
21- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، الشهير تفسير المنار، ط2، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، 1393هـ-1973م، ج8، ص142.
22- الجرجاني الشريف، التعريفات، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت، 1990م، ص149.
23- ارجع لـ: القاسمي محمد جمال الدين، محاسن التأويل، ضبه وصحّحه وخرّج أحاديثه وآياته محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ -1997م، مج1، ص166، والأندلسي أبو حيان، البحر المحيط، ج2، ص544، والرازي فخر الدّين، التفسير الكبير، مج 2، ج3، ص214، والقزويني الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 197.
24- العلوي يحيى، الطراز، ج2، ص176.
25- السيوطي جلال الدين، معترك الأقران، مج1، ص252.
26- نفس المرجع، مج1، ص256.
27- الشريف الجرجاني، التعريفات، ص68.
28- ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1408هـ-1988م، ص163.
29- الشوكاني محمد بن عليّ بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، مراجعة د. محمد الإسكندراني وأحمد إبراهيم زهرة، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، 1420هـ-1999م، ج5، ص163.
30- الرّازي فخر الدين، التفسير الكبير، مج 15، ج30، ص102.
31- القاسمي محمد جمال الدين، محاسن التأويل، مج9، ص354.